الفصل الخامس

انجلترا في عصر أسرة ستيوارت

على الرغم من أن الملكة اليصابات استطاعت الحد من الصراع الدينى بين البروتستانت والكاثوليك ، فان ذلك لم يستمر بعد وفاتها فى عام ١٦٠٣م حيث اصطلت انجلترا مرة اخرى بلهيب هذا الصراع ومرارته وفيما يلى نعرض لذلك من خلال الملوك الذين تعاقبوا على العرش الانجليزى بعد اليصابات .

اولا — جيمس الأول :

تولى عرش انجلترا بعد اليصابات بحكم الوراثة جيمس السادس ابن مارى ستيوارت وامير اسكتلنده واطلق على نفسه لقب « جيمس الأول » .

وقد استغل الملك الجديد ظروف حكمه لاسكتلنده قبل ذلك فقام بعمل وحدة بينها وبين انجلترا ، ولكن هذه الوحدة كانت هشة الاركان لأسباب عديدة نذكر منها :

١ — عمق الخلافات بين الانجليز والاسكتلنديين فى ذلك الوقت .

٢ — شخصية الملك المتسلطة وغير المحبوبة من كل الطرفين .

٣ — اعتبار الملك نفسه فوق القوانين كلها وتمسكه بنظرية الحق الالهى للملوك فى الحكم .

٤ — فرضه للضرائب دون الرجوع الى البرلمان مما اثار اعضاء البرلمان ضده .

ونتيجة لذلك لم يسترح الشعب الانجليزى والاسكتلندى لحكمه ، ولما اعترض البرلمان على قراراته أمر بحله كما اتهم أعضاءه بالخيانة العظمى ، وظل يحكم البلاد دون برلمان لمدة احدى عشرة سنة .

ونتيجة لذلك اضطربت الأحوال ، واضطر العديد من الانجليز البروتستانت للرحيل الى أمريكا فى عام ١٦٢٠م فكرها منهم لحكم هذا الملك .

هذا وقد ساعدت ظروف انجلترا الخارجية الملك جيمس الأول على الاستمرار فى الحكم حيث تولى العرش فى ظروف ما بعد الياصابات والتى كانت فيها بلاده قد اختتمت حروبها مع اسبانيا بعد أن حققت أعظم انتصاراتها البحرية بتدمير الأسطول الاسبانى الارمادا .

ومع ذلك فقد أوقع جيمس الأول بلاده فى خلافات داخلية نتيجة لحله البرلمان ، وتمسكه بنظرية الحق الالهى للملوك فى الحكم ونفور الناس منه ، وقد توفى جيمس الأول فى عام ١٦٢٥ وخلفه فى الحكم ابنه شارل الأول .

شارل الأول :

عجز شارل الأول عن اكتساب محبة الشعب مثل أبيه نظرا لافتقاره الى صفات الحاكم السياسى وتمسكه بنظرية الحق المطلق للملوك ، وعاش فى خلاف دائم مع البرلمان ، وبالرغم من أنه حاول أن يستميل الشعب الانجليزى ويكتسب محبته عن طريق احرازه لانتصارات خارجية على أسبانيا وفرنسا فان حملاته باءت بالفشل ، ونظرا للمشاكل التى طرات على الخزينة الانجليزية نتيجة لتكاليف هذه الحروب فانه اضطر الى جمع المال من الشعب دون الرجوع الى النواب ففرض قروضا اجبارية على الصناع والتجار وغيرهم من أفراد الطبقة الوسطى ، وهدد كل من يمتنع عن ذلك بالسجن ، مما أثار الشعب الانجليزى ، فهب مطالبا بضرورة تحديد نفوذ الملكية ، بحيث لا يسجن أحد دون محاكمة عادلة ونتيجة لذلك أجتمع أعضاء البرلمان فى عام ١٦٢٨ ، وأعدوا وثيقة أطلقوا عليها « ملتمس

الحقوق » أهم محتوياتها هو المطالبة بعدم جواز قيام الملك بفرض ضرائب أو جباية قروض دون الرجوع الى البرلمان ، وألا يأمر بسجن أحد خارج حدود القانون على أساس أن الملك لا يتمتع بالسلطة المطلقة فى حكمه .

ولما اعتبر الملك هذه الوثيقة تقييدا لسلطاته رفضها فى بداية الأمر ثم قبلها بعد تردد طويل وذلك ليس لاقتناعه بها بل لشدة حاجته الى موافقة البرلمان على صرف الأموال .

ولما ناشد البرلمان الملك بعزل « دوق بكنجهام » الذى كان موضع سخط الشعب ، وسبب هزائم انجلترا فى حروبها ضد اسبانيا تأزمت الحالة بينهما لدرجة أن قرر الملك أن يحكم بدون برلمان ، ونتيجة لاستياء الشعب الانجليزى من مليكه خصوصا بعد أن نما الى علمه أنه يرغب فى العودة ببلاده الى المذهب الكاثوليكى بايعاز من زوجته التى كانت تعتنق هذا المذهب شد الشعب أزر البرلمان ضد الملك . وعلى الرغم من أن القانون الانجليزى كان يحتم عدم عقد البرلمان الا بدعوة من الملك ، فقد اجتمع البرلمان ورفض الانفضاض بناء على طلب الملك وخلال اجتماعه أصدر قرارا ينص على « أن كل من يدخل فى الدين أفكارا كاثوليكية ، وكل من يأمر بفرض الضرائب دون الرجوع الى البرلمان ، وكل من يشجع على تأدية هذه الضريبة يعتبر عدوا للأمة وللمصلحة العامة » .

ونتيجة لذلك أمر الملك بحل البرلمان ، وحكم بلاده حكما استبداديا قاسيا ، كما أمر بفرض الضرائب والمكوس بكافة الوسائل ، وانشاء محاكم استثنائية لكل من يقاوم سياسته مما أدى الى زيادة هجرة الانجليز من بلادهم الى المستعمرات الأمركية . ومن أشهر الضرائب التى فرضها الملك شارل الأول ضريبة السفن Ship Money وحاول عن طريقها جمع المال اللازم من الشعب الانجليزى لتقوية الاسطول ، ولما امتنع عن دفع هذه الضريبة أحد أعيان الطبقة الوسطى فى الريف واسمه جون هميدن فضلا السجن والمحاكمة عن الرضوخ لأوامر الملك الاستبدادية قدم للمحاكمة مما أثار أغلبية الشعب وأدى الى اعتباره بطلا قوميا وكان من نتائج ذلك التهيئة للقيام بثورة ، وزعزعة الثقة بين الملك والأمة ،

وزاد الطين بلـــة أن اختـــار الملك كبير مستشاريه فى الشئون الدينيـــة « وليم لود » أحد أنصار كنيسة روما ، ولمـــا حاول لود فرض كتاب الصلاة الانجيلكانى على أهل البلاد واجبار رجال الدين على قبول طقوس دينيـــة جديدة وهدد كل من يمتنع عن تنفيذ ذلك بأقصى العقوبات التى وصلت الى حد المحاكمة والجلد .

ونتيجة لذلك قامت ثورة الاسكتلنديين وهم غلاة البروتستانتية ضد الملك ومستشاره الدينى حيث رفضوا قبول هـــذا التغيير ووضعوا ميثاقا أسموه بالتحالف القومى The National Covenant تعهد الموقعون عليـــه بالوقوف ضد أى محاولة لفـــرض أى مذهب دينى يخـــالف عقيدتهم بكل ما يملكون من نفوس وأموال ، ولمـــا فشلت كل السبل لاقناعهم بالعدول عن موقفهم أرسل الملك قواته لمحاربتهم الا أن هذه القوات فشلت فى تحقيق أى انتصارات عليهم مما اضطر الملك الى عقد صلح مؤقت معهم فى عـــام ١٦٣٩ حتى يستعد لمواجهتهم من جديد ، ولمـــا لم يستطع الملك تجهيز القوة الكافية لردهم حاول أن يسترضى الشعب الانجليزى كما حاول حثه على الاشتراك فى تدبير الأموال اللازمة للحرب وهنا اضطر الى دعوة البرلمان الى الانعقاد ، وقد وجد أعضاء البرلمان فى ذلك فرصة لمطالبة الملك برفـــع المظالم التى يشكو منها الشعب مما أغضب الملك وجعله يأمر بحل البرلمان مرة أخرى بعد مدة قصيرة من دعوته له لم تزد عن ثلاثة أسابيع مما جعـــل البعض يطلق عليه اسم البرلمـــان القصير .

ولمـــا حاول الملك شارل مواجهة الاسكتلنديين الذين ازدادت حركتهم أرسل اليهم حملته الثانية التى لم تكن بأحسن حـــالا من الحملة الأولى ، فقد لاقت الهزائم حتى وصل الأمر بالاسكتلنديين الى غزو انجلترا نفسها ، مما جعل الملك يعترف بهزيمته ، ويسرع باستدعاء البرلمـــان للانعقاد للنظر فى شكاوى الشعب ، وقد قدر لهذا البرلمان أن يعيش مـــدة طويلة بلغت قرابة الواحد والعشرين عاما حتى عرف فى التاريخ باسم البرلمـــان الطويل The Long Parliament ، وقد نجح هذا البرلمان فى أن يثبت قدرته على استقلال ارادته على الملك ، مما كان له أكبر الأثر فيما طرأ على انجلترا من تحول سياسى ، وكان من أهم أعمال هذا البرلمان التصويت على توجيه

تهمة الخيانة الى رئيس الوزراء واجبار الملك على التوقيع على اعدامه ، والتصويت أيضا على محاكمة المستشار الدينى للملك ، كما اصدر هذا المجلس العديد من القرارات فى صالحه فاضطر الملك على توقيع مرسوم بتحريم حل البرلمان دون موافقة اعضائه وبحق النواب فى الاجتماع كل ثلاثة أعوام على الأقل حتى وان لم يتم ذلك بناء على طلب من الملك ، كما الغى المجلس المحاكم الخاصة مثل المجلس الذى عرف بقاعة النجم Star Chamber زمن التيودوريين والتى كانت تساعد الملوك على اخضاع الأشراف لهم ، والمحكمة العليا التى كانت تحاكم المعارضين للملك ، كما أصدر قرارا بالغاء ضريبة السفن ، ولشدة العاصفة اضطر الملك للرضوخ حتى تحين له الفرصة المناسبة للتخلص من البرلمان ، وقد وجد بصيصا من النور حينما اشتد الخلاف بين أعضاء البرلمان حول الوسائل الدينية فحاول ان يستعيد سلطاته بتدبير المؤامرات ضد معارضيه فى البرلمان وعندما شعر المعارضون للملك بما يدبر ضدهم ، قدموا احتجاجا سموه الاحتجاج الأعظم أوضحوا فيه كل مساوىء الملك ، وطالبوا فيه بمسئولية الوزراء أمام البرلمان ، وقد طبع هذا الاحتجاج ووزع على أفراد الشعب مما أثار حنق الملك فأمر باستعمال القوة ضد أعضاء المجلس المعارضين له فذهب على رأس قوة الى المجلس للقبض على الزعماء المعارضين لسلطته وتقديمهم للمحاكمة بتهمة الخيانة ، ولكنه لم يجد لهم أثرا حيث كانت الأخبار قد تسربت اليهم بنية الملك فى القبض عليهم ، وقد أثار ذلك جماهير العاصمة الانجليزية ضد الملك وتحرج الموقف ، مما اضطر الملك للفرار الى الريف خشية تطور الموقف مما أدى الى اشتعال نار الحرب الأهلية فى انجلترا وبخاصة فى عام ١٦٤٢ حيث أصبح لا مفر من معركة دموية بين الملك من ناحية والبرلمان وانصاره من ناحية اخرى ونتيجة لذلك انقسمت البلاد الى قسمين قسم يمثل أعوان الملك من النبلاء ورجال الجيش ، والمشايعين للكنيسة الكاثوليكية ، ومعظم الذين ينتمون الى البيوت الاقطاعية الكبرى ، وقد أطلق على هؤلاء اسم الفرسان ، أما القسم الآخر فكان يمثل انصار البرلمان واطلق عليهم أصحاب الرؤوس المستديرة وكان يساندهم تجار لندن بثرواتهم الضخمة ، ثم انضم اليهم الاسكتلنديون بعد ذلك ، وقد نجح هؤلاء فى تكوين جيش جديد تحت رئاسة القائد

العسكرى « أليفر كرومول » الذى امتـــاز بالقدرة عـــلى اعداد القـــوات وتنظيمها .

وقد استمرت الحرب بين الطرفين عـــدة سنين ثم انتهت لصـــالح أنصار البرلـــمان ، وهزيمة الملكيين ووقوع الملك فى الأسر ، ومحاكمته بتهمة الخيانة واعدامه بمدينة لندن فى التاسع من فبراير ١٦٤٩ .

وبعد مواجهات دموية فى أماكن متعددة تم الاطـــاحة بعرش بريطانيا واعلان النظام الجمهورى الذى أطلق عليـــه فى تلك الفترة اسم رابطـــة الشعوب البريطانية Commonwealth . وقد حاول كرومويل — الذى برهن على أنه كان يمتلك بجانب قدراته العســـكرية ، صفات الزعامـــة السياسية — أن يشيد نظاما جديدا يكون أساسا لحـــكم عادل فوضـــع دستورا أطلق عليه أداة الحكم ، وبموجبه تحولت انجلتـــرا من ملكية الى جمهوريـــة ، وان ظل كرومبل يتمتع بالعديد من السلطات التى كانت تفوق ما تمتع به الملك شارل الأول ، وفى ظل هذا الحكم تم حل البرلـــمان أكثر من مرة ، وظل كرومبل يحكم بلاده حكما دكتاتوريا حوالى خمس سنوات عانت بريطانيا خلالها الكثير من المصاعب والمتاعب .

وبعد وفاة كرومويل فى عام ١٦٥٨ لم يستطع ابنه ريتشارد التحكم فى زمام الأمور ، وأخذت الفوضى فى الازدياد ، ونتيجة لذلك تكون حلف من الملكيين والبرلـــمانيين ورجال الأعمال بهدف اعـــادة الملكية مما دفـــع ريتشارد الى التنازل عن الحكم وأدى الى سقوط الجمهورية وعودة أسرة ستيوارت الى الحكم فتولى شارل الثانى زمام الأمور ، ولكنه كان ضعيف الارادة مثل أبيه ، ويميل الى الحكم الأتوقراطى ولا يهمه من السلطة سوى اللهو والمرح والتمتع بالملذات ومع كل ذلك فانه لم ينس تجربة أبيه خلال أزمته مع البرلـــمان ، ومن هنا حرص على الوفاق معه.

ولمـــا كان أعضاء البرلـــمان يرتابون فى نوايا هذا الملك تجاه مساندة الكاثوليك ، فقد أصدروا قانون الاختبار Test Act الذى ينص على ضرورة التقيد بطقوس الكنيسة الانجليزية ويفصل من وظيفته الحكوميـــة كل من يخرج عن هذه الطقوس .

وتحسبا للموقف ومواجهته فى الوقت اللازم عقد شـــارل الثـــانى معاهدة مع الملك الفرنسى لويس الرابع عشر تنص على مساندته فى حالة قيام الشعب الانجليزى ضده عند محاولاته اعادة الكاثوليكية الى بريطانيا ، مما أساء الى سمعته أمام شعبه .

جيمس الثـــانى :

خلف شارل الثـــانى فى حـــكم بريطانيا ، وكان من أشـــد أنصـــار الكاثوليكية ومن أكبر الراغبين فى اخضاع نفوذ انجلترا الدينى لباباويـــة روما ، ومن هنا ورط نفسه فى خلافاته مع البرلمان بعد أن أصدر « لائحة التسامح الدينى » والتى بمقتضاها تم الغاء القوانين المناهضة للكاثوليك ، ومن أهمها حقهم فى تولى المناصب القيادية فى الجيش والحكومة .

ومن هنا لم يكن هناك مفر سوى أن يعلن البرلمان خلعه ، ودعـــوة ابنته مارى البروتستنتية لتولى العرش ، ولما كانت مارى متزوجة من وليم أورانج حاكم هولنده ، وأحد أفراد الأسرة الملكية الانجليزية فقد قام وفـــد من البروتستنت بدعوة أورانج لتولى حكم انجلترا هو وزوجته ، وقد لبى الزوجان الدعوة ونزلا الى انجلترا مؤيدين بالبروتستنت ، وخلال ذلك تم القضاء على المقاومة الكاثوليكية ، ونجحا فى الوصول الى الحكم فى عـــام ١٦٨٨م ، وقد سمى الشعب الانجليزى ما حدث بالثورة المجيدة على أساس أنها كانت ارادة شعبية مهدت لانتصار ارادة الشعب وانتقلت من خلالها السلطة الى يد الشعب المتمثل فى مجلس العموم .

اعـــلان الحقوق :

ولاستمرار اعتلاء كلمة الشعب أصدر البرلمـــان فى عام ١٦٨٩ قانونا أسماه اعـــلان الحقـــوق Declaration of Rights قيد فيه سلطات الملك ، وقوى من سلطة البرلمان فاشترط على الملك الجديد وأسرته مراعاة الآتـــى :

١ — لا يجوز للملك سن أى قانون الا بموافقة البرلمان كما لايجـــوز له الغاء أى قانون أو فرض ضرائب أو تشـــكيل جيش دون أخـــذ موافقة البرلمـــان .

٢ — لا يجوز للملك سجن معارضيه دون محاكمة .

وقد وافق وليم وزوجته مارى على هذه الشروط وتولى العرش تحت اسم « وليم الثالث » .

وبعد ذلك اصدر البرلمان عدة قوانين منها قانون :

التسامح الدينى : الذى منح البروتستانت الخارجين على نظام الكنيسة الانجليكانية حق تأدية طقوسهم الدينية وان كان لم يسمح لهم بمزاولة النشاط السياسى.

وقانون التسوية : الذى اشترط الا يتولى عرش انجلترا من يعتنق الكاثوليكية ، وقانون الوحدة Act of Union وبمقتضاه أصبحت اسكتلندا وانجلترا مملكة متحدة ، وبذلك تكونت فى عام ١٧٠٧ المملكة المتحدة البريطانية العظمى وأصبح يطلق على الانجليزى والاسكتلندى لقب بريطانى ونتيجة لتلك القوانين والاصلاحات الانجليزية أصبح الانجليز فى نظر الأمم الأخرى أعرق الشعوب فى ممارسة الحكم الدستورى ، وصارت الملكية فى بريطانيا منذ ذلك الوقت لا تجرؤ على مجابهة البرلمان .

ومما سبق يتضح أن ثورات الانجليز على الحكم الاوتقراطى أسفرت عما يأتى :

١ — حق المجالس النيابية فى اصدار القوانين وفرض الضرائب ومناقشة سياسة الدولة بعد أن كان ذلك من حق الملك ووزرائه .

٢ — أصبح يمثل الحياة النيابية فى بريطانيا مجلسين هما مجلس اللوردات ومجلس العموم .

٣ — تلاشت فكرة التمثيل الطبقى فى الدوائر الانتخابية فأصبح عضو البرلمان يمثل جميع سكان دائرته ولا يمثل طبقة اجتماعية أو اقتصادية معينة .

٤ ــ ادراك حقوق الفرد السياسية ومعارضة الامتيازات الطبقيــة وانتشار حرية الراى وفكرة المساواة بين الطبقات .

٥ ــ اتباع نظام الحزبين ، وقد برزت هــذه الفكرة عنــدما انقسم أعضاء البرلمــان بين معارضــين للملك ومؤيدين لــه ، ثم تطورت هذه الفكرة حتى تكون حزبا الأحرار والمحافظين .

٦ ــ اختيــار الملوك للوزراء من زعماء الحزب الذى يحصل عــلى الأغلبية فى مجلس العموم بعد أن كان الملك يختارهم من المقربين اليه من ذوى النفوذ .

٧ ــ تطور النظريات السياسية ونظريات الحقوق الطبيعية خصوصا بعد أن قام كبار الأدباء ومن أشهرهم جون لوك بتأليف كتب حول أصول الحكم ، ومعارضتهم للحكم الاوتوقراطى وتشجيعهم للحكم الديمقراطى وللحقوق الطبيعية للأفراد فى الحرية والتملك ونشرهم لفكرة أن الشعب صــاحب الأمــر والنهى فى تقرير أموره ، وقد انتشرت هذه المذاهب خارج انجلترا خصوصا فى فرنسا وأمريكا .

وهكذا كان للثورة الانجليزية اكبــر الأثــر من تقليص نفــوذ الحكم الأوتقراطى ، وبناء مجموعة من الدساتير كان لها اكبر الاثر فى قيام الحياة الديمقراطية فيما بعد ، وقد اعقب ذلك ظهور انجلترا كأعظم دول العــالم فى ميدان التجارة والصناعة على السواء .